(فقه البناء والتجديد)
في المشروع الإيماني والأخلاقي النوري
مقاربة لـ (التجربة الإصلاحية التربوية النورية)

د. محمد البنعيادي(*)

مقدمة: في سيرة المربي الشاهد ومسيرة المفكر المجدد

لقد اقتضت المشيئة الإلهية في كل عصر ومصر، تجديدَ الحفاظ على طهارة الفطرة وصفائها، وتنقيتَها من كل الشوائب التي قد تحيط بها، والتي قد تشكل حاجزا بين النور والضلال. ولذلك كلما ابتعد الناس عن المنهج الإلهي القرآني، كلما سخر الله لهم من يجدد دينَهم ويصلح تدينَهم وينفث فيهم روح القرآن.

ومن أبرز المصلحين الذين برزوا للتصدي لشرف هذه المهمة العظمى- إبان القرن العشرين- نجد الأستاذ والداعية المربي بديعَ الزمان سعيد النورسي رحمه الله، الذي جاء ليُرسيَ أسسَ مشروع إصلاحي تربوي ونَهْضَتٍ قرآني، من أبرز ركائزه تشييدُ البناء الإيماني والأخلاقي الذي يُعتبر الأرضيةَ الصلبةَ والقاعدةَ الأساس لأي بناء حضاري شامل.

وفضيلة الأستاذ بديع الزمان النورسي - رحمه الله - صاحبُ مشروع وباعثُ أمة ومجددُ قرن، مَعْلَمةٌ حية نابضة بهموم الإيمان والأخلاق والعلم والثقافة القرآنية البانية، ليس في الواقع التركي فقط، وإنما في واقع الأمة الإسلامية عَجَمِيّها وعربيّها. رسائلُه إسهاماتٌ بارزة وفارقةٌ في المنتج الإسلامي المعاصر، وفي تحريك الحس الحضاري،

(*) أستاذ متعاون بكلية الآداب والعلوم الانسانية / جامعة محمد الأول بوجدة - وأستاذ متعاون بكلية الآداب والعلوم الانسانية / جامعة سيدي محمد بن عبدالله/ سايس و ظهر المهراز بفاس – المغرب.
mbenayadi2@gmail.com

وإيقاظِ الشعور الجماعي للأمة. إن الذي يتدبر رسائل الرجل يشدُّه هذا التفكيرُ العميقُ والنظرُ الطويل والتأملُ البصير في البحث عن علل وأزمات الأمة، واقتراحِ الحلول لها، ويأسره هذا التعبير المتين والأسلوب الرصين[١] الذي يختزل المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة والصور الجميلة التي تقلص المسافات بينك وبينه، وبينك وبين ما يريد تبليغه، وهو يقبس من القرآن الكريم ومن السنة النبوية العطرة. إنه داعية قدير حمل همَّ الدعوة إلى الله في وقت عصيب، وسعى إلى استرداد ذات الأمة التركية (والإسلامية) المهرَّبة، ورَغَّب أبناء الإسلام في الرضاع من لبنه الخالص بتصور شامل نقي يستوعب فقه الدين وفقه الواقع، ويتسلح بالعلم والعمل. إننا بحق أمام رجل وهبه الله - عز وجل - من الطاقات والملكات، ناهيك عن تواضعه الجم وخلقه الرفيع الذي يشهد له بالقدوة والحكمة والذي يستشف من ثنايا رسائله البانية وشهادات تلاميذه الأبرار الأوفياء لدعوته، الذين ساروا على دربه وحملوا رسالته رغم الإكراهات المتعددة الأسماء والألوان.

أن تدخل إلى رحاب عقل وروح المربي النورسي، فأنت تفتح عينيك على مدى مساحة الأفق الرحب الذي يختزن عُمْقَ الرؤى وشموليةَ التطلعات صوب الحياة والإنسان... صوب الأفكار الأصيلة المنبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

وإذ أقدِّم - في هذه المداخلة - رائداً من رواد (الإصلاحية الإسلامية المعاصرة)، فإنني أتوخى التواصل مع الأفكار الأصيلة التي تفسح لنا المجال للتأمل فيما هو مستمر في الحالة الإسلامية السائدة، وكلي رجاءٌ في أن يجد هذا المؤتمر في هذه المداخلة بعض الفائدة حتى تبقى رحلتُنا الإسلاميةُ في خط الفكر والعمل منفتحةً على المستقبل ومنطلقة في الآفاق «نبراساً» من أجل ثقافة بانية تنهل من هدي الإسلام الذي ندعو إليه كقاعدة للفكر والسلوك والعاطفة والحياة.

المحور الأول: (مشروع إنقاذ الإيمان والأخلاق) في فكر النورسي، بناء وتجديدا

١) في مهمة الرسائل: (سعيد الجديد) يكشف عن مشروع (طريق إنقاذ الإيمان) [٢]

وأنت تقرأ رسائل النور تجد نفسك غارقا في بستان النور، تحملك العبارات

---

(١) لذلك وجدتُني أَسِيرَ المتن النوري في هذه الورقات، إذ حافظت على صيغه البديعة، ولم أرجع لغيره إلا قليلا.

(٢) "سعيد القديم" هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه قبل قيامه بتأليف رسائل النور (١٩٢٦) وقبل أن يأخذ "سعيد الجديد" على عاتقه مهمة إنقاذ الإيمان، ويستلهم من فيض القرآن الكريم رسائل النور. انظر: الكلمة العاشرة، ص: ١٠٣هامش١، مترجم الرسائل: إحسان قاسم الصالحي.

الحليمة الحالمة إلى آفاق التفكر والتدبر، وتجعلك معزولاً عن المشاعر الهابطة، متوجهاً إلى خالقك الكريم بعبودية خالصة، ترفك إلى منازل السمو على الأخلاق الرذيلة، و تقتل عندك النفس الأمارة بالسوء، وتبعث الحياة في نفسك اللوامة لترتقي إلى مستوى النفس المطمئنة. إن هذا- باختصار- هو مهمة رسائل النور.

فاستمعْ إليه وهو يتحدث عن نور القرآن ببلاغة نادرة وعمق في التصوير ورهافة في الإحساس: فننظر إلى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، وإذا هو مناظر متبدلة، متجددة، يُحوِّل تجددُها المستمر تلك الوحشةَ الرهيبةً النابعةً من هبوب العواصف وحدوث الزلازل إلى نظر تقطر منه العَبْرة، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله، فتستضئ وتتألق ببهجة التجدد ولطافة التجديد، فلا تستطيع عندها نفوسُنا الأمارةُ قهرَنا، بل نكون نحن الذين نقهرها بما منحنا القرآن الكريم من ذلك السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتصبح النفس الإمارة طوعَ إرادتنا، وتغدو وسيلةً نافعةً ووساطةَ خير للفوز بحياة خالدة[1]. نعم، إنها إحدى الوظائف المتعددة للرسائل (بالإضافة إلى الحديث عن التشريع والحياة الاجتماعية والسياسية)، بل أهم تلك الوظائف، هو التجديدُ في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية، فهي أَجَلُّ وأعظمُ تلك الوظائف الثلاث، لذا تبقى دوائر" الشريعة" و"الحياة الاجتماعية والسياسية" في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بالنسبة لدائرة الإيمان[2].

٢) النورسي (متكلما جديدا)

لقد نافح النورسي عن (قضية الإيمان) ضد زحف الأفكار الضالة المضلة بتركيزه على توضيح الحقائق الإيمانية متوسلا بلغة عصره ومناهجه، لأنه علم أن الرقي والتقدم الاجتماعي مرهونان عنده بالإيمان، فنهض ليذود عن الإسلام وعقيدته مسهما في تشييد صرح علم الكلام الجديد الذي يتوسل بالعلوم الحديثة والمنطق والحكمة المعاصرين منطلقا من مرجعيته الصافية ومسدَّدا بأنوارها الباهرة، القرآن المعجز البيان الذي جمع أنواعَ البلاغة، وجميعَ أقسام فضائل الكلام، وجميع أصناف الأساليب العالية وجميعَ أفراد محاسن الأخلاق، وجميع خلاصات العلوم الكونية، وجميعَ فهارس المعارف الإلهية، وجميعَ الدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، وجميعَ القوانين

---

(١) اللمعة الأولى - ص: ٩

(٢) الملاحق - ملحق قسطموني، ص: ١٩٦، بتصرف يسير.

النورانية السامية لحكمة الكون[١]. ويمكن رصد إسهام العلامة النورسي رحمه الله في (الكلام الجديد) من خلال: سنن الآفاق وسنن الأنفس.

أ/ جَلالُ الخَلاَّق في سُنَنِ الآفاق:

إن القرآن يبحث عن مسائل عظيمةٍ ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائقَ دقيقةٍ ويدعو العقول إلى معرفتها. فلابدّ، لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة، من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة[٢]، لذلك اتبع النورسي أسلوبَ المعرفة المعاصرة ومناهجَها، ومنطقَ العلم وحقائقَه، وحكمةَ الفلسفة ومقاصدَها للدفاع عن العقيدة وتثبيت الحقائق الإيمانية التوحيدية، اتبع أسلوبا يخاطب العقل والوجدان معا، يحلق بك في عوالم العقل ويطير بك في آفاق الروح الممتدة نحو الله الواحد الأحد القاهر القادر القوي المتعال... حتى يمكن اعتبارُه من رواد مؤسسي علم الكلام الجديد[٣]، فاستمع إليه مستثمرا سننَ الآفاق التي أودعها الله في هذا الكون ومتحدثا عن روعة الخلق وبديع الصَّنعة الالهية: ومثلما لا يمكن أن تكون دار بلا بنّاء، لاسيما هذه الدار التي زيّنت بأبدع زينة، ونقشت بأروع نقوش وأعجبِها وشيّدت بصنعة خارقة، حتى أن كل حجر من أحجارها يتجسم فيه فنُّ ما في البناء كله، فلا يقبل عاقل أن تكون دار مثلُ هذه الدار بلا بنّاء ماهر، وبخاصة أنه يشيّد في هذا الديوان - في كل ساعة - مساكنَ حقيقية في غاية الانتظام والتناسق، ويغيّرها بانتظام وسهولة كاملين[٤]، وإن بنّاءً شيد قصراً فخماً، أحجارُه من جواهر مختلفةٍ، ووضع تلك الأحجار في أوضاع وزَيَّنَها بزينة ونقوش موزونة تتعلق بجميع نقوش القصر الرفيعة، ثم دخل ذلك القصرَ من يقْصُر فهمُه عن تلك النقوش البديعة، ويجهل قيمةَ جواهره وزينتَه. وبدأ يبدّل نقوش الأحجار وأوضاعَها، ويجعلها في نظام حسب أهوائه حتى غدا بيتاً اعتيادياً.ثم جمّله بما يعجب الصبيان من خرز تافه، ثم بدأ يقول: انظروا، إن لي من المهارة في فن البناء ما يفوق مهارةَ باني ذلك القصر الفخم، ولي ثروةٌ أكثرُ من بنّاء القصر! فانظروا إلى جواهري

---

(١) الكلمة الخامسة والعشرون - ص: ٤٦٦

(٢) الكلمة التاسعة عشرة - ص: ٢٦٥

(٣) لمزيد تعريف "الكلام الجديد" انظر كتابنا: الكلام الجديد (حديث في المفهوم ...). ط١/٢٠١٠، فاس المغرب

(٤) الكلمة العاشرة - ص: ٦٠

الثمينة! لا شك أن كلامه هذا هذيان بل هذيان مجنون ليس إلا[١]. إن النقوشَ المتقنة والتزييناتِ البديعةَ لقصرٍ كامل رائع، تدل على ما وراءها من كمال الأفعال التامة لبنّاء ماهر خبير... وإن كمالَ تلك الأفعال وإتقانَها ينطق بتكامل الأسماء[٢] لرُتَب وعناوين ذلك البنّاء الفاعل... وتكاملُ الأسماء والعناوين يُفصح عن تكامل صفاتٍ لا تحصى لذلك الصانع من جهة صنعته، وتكاملُ تلك الصفات وإبداعُ الصنعة يشهدان على تكامل قابليات ذلك الصانع واستعداداته الذاتية المسماة بالشؤون. وتكاملُ تلك الشؤون والقابليات الذاتية يدل على تكامل ماهية ذات الصانع[٣]. إن البِنَاءَ يدُلُّ على صنعة البنَّاء وفِعله. والفعلُ الكاملُ المتقن يدل بالضرورة على فاعلٍ حاذقٍ، ومعماري ماهر. وهذه العناوين؛ فاعل حاذق، معماري ماهر، بَنَّاء مُتْقِنٌ، تدلّ بالبداهة على صفات كاملة لا نقصَ فيها يتصف بها ذلك الفاعل، أي تدل على مَلَكة الإبداع عنده. وإن الصفاتِ الكاملةَ ومَلَكةَ الإبداع الكاملة، تدل بالبداهة على وجود استعداد كامل وقابلية تامة، والاستعدادُ الكاملُ هذا يدل على ذات رفيعة، وروح عالية[٤].

فانظر إلى براعة الجدل وقوة الحجة وجمال التصوير وبلاغة العبارة، ولا ينضح بمثل ذلك إلا عقل رصين ونفس شفافة مثل عقل ونفس هذا (السعيد الفريد) الذي يأخذ بيدك بنعومة وعطف ورقة وحنان إلى النتيجة الحتمية حين يقول: لا شك أنك أدركت الآن مدى سخافةِ وبلاهةِ مَن يرى هذا البناء الشامخ العامر للنبوة، ثم يظن أنه يهوي بشبهات واهية تَرِدُ إلى ظنه من جزئيات الأمثلة[٥]. وعليه، فإن عدم الإيمان بالخالق ذي الجلال، ورفضَ التصديق بأوصاف كماله سبحانه ... ضلالةٌ أدهى ولاشك، بل هذيانٌ وجنونٌ.. لأنه يلزم إذاك قَبُولُ ألوهية مطلقة في كل شئ حتى في كل ذرة![٦].

فيا أيها الإنسان! إنك من جهة جسمِك النباتي ونفسِك الحيوانية جزءٌ صغير وجُزيْء حقيرٌ ومخلوقٌ فقير وحيوانٌ ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات

---

(١) الكلمة الخامسة والعشرون - ص: ٥٠٤

(٢) يقصد أسماء الله الحسنى مثل: القادر والحكيم والجبار... وكلها تتكامل عبر سنن الله في الآفاق والأنفس.

(٣) الكلمة الثانية والعشرون - ص: ٣٤٣

(٤) الكلمة الثالثة والثلاثون - ص: ٨٠١

(٥) المكتوب التاسع عشر - ص: ١٥٦

(٦) الكلمة العاشرة - ص: ٦١

المتزاحمة المدهشة. إلاّ أنك من حيث إنسانيتُك المتكاملةُ بالتربية الإسلامية المنوَّرة بنور الإيمان المتضمن لضياء المحبة الإلهية سلطانٌ في هذه العبدية .. وإنك كليٌ في جزئيتك... وإنك عالَمٌ واسع في صغرك... ولك المقامُ السامي مع حقارتك فأنت المشرَّفُ ذو البصيرة النيرّة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة[1].

إن العلامة النورسي يحدثنا في أكثر من موقع من رسائل النور عن سنن الآفاق بأسلوب شيق يجمع بين التصوير الفني والتدليل المنطقي والبرهان العلمي... بلغة عصرية تسهل الولوج في عوالم التوحيد المبرأة من الشركيات، بلغة تجعل المسألة الإيمانية واضحة وناصعة وضوح ونصاعة الحق والحقيقة.

ب/ قول النورسي الأَنْفَس في سنن الأَنْفُس:

إن معاشرة النورسي للقرآن الكريم، كما أتاحت له سياحةَ متدبرٍ في آيات الآفاق كما سلف، أتاحت له سياحةَ عاشقٍ في آيات الأنفس، لذلك كان قولُه نفيسا عزيزا، قَلَّ أن تعثر على نظيره في المنتج الفكري والكلامي الإسلامي المعاصر. فاستمع إليه حين يقول: لا جدال في أن "النفس البشرية" طاقةٌ عظمى من طاقات البناء والإعمار، ومصدرٌ خِصْب من مصادر الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم إذا ما زَكَت وصَفَت وغدت موصولةَ الأسباب بفاطرها ومُوجدها، لأن صلتها بالله، واستمساكَها بأسباب أنواره، يجعلها موضعَ نظره، ومَنْ كَان موضعَ نظر الله تعالى أُفيض عليه من صفات جماله وكماله ما يستطيع بها أن يمحق ظلامَ الدنيا وشرورها... وهى - أي النفس -قوة تدميرية عمياءُ، وطاقةُ هدمٍ مرعبةٌ، إذا ما نَمَتْ فيها جرثومةُ التمرد والنَّزَق والجموح، وعصفت بها رياح الهوى الهوج المحرِّكةُ لنيران رغباتها المجنونة، وشهواتها العارمة، فتحرق هذه النار كلَّ سبب يصلها بالله تعالى، فلا تلبث -بعد ذلك -أن تتنكر لخالقها وبارئها، وتنزع إلى عصيانه، وترغب في الانفلات من مسؤوليات الإيمان، وتكاليف الإسلام[2].

ويتحدث النورسي عن بعض أسرار النفس البشرية التي-بتأثير النور القرآني-تصنع معجزة البناء الإيماني المرصوص فيقول: اعلم! أن سر تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتِهم في جماعاتهم سرٌّ عظيم، وأمرٌ جسيم، له شأن فخيم؛ إذ يصير به كلُ فرد

(١) الكلمة الثالثة والعشرون - ص: ٣٧١

(٢) المثنوي العربي النوري - ص: ٩

كالحجر المجصوص، في البناء (القرآني المرصوص)[١] الذي يحقق الخلافة الحقيقية للإنسان في الأرض التي اعتبر النورسي وجهَها صحيفةً، ما أكثر ما فيها من كتب! واعتبر الشجرة كلمة واحدة، وما أكثر ما فيها من صحائف! والثمرةَ حرفٌ، والبذرة نقطة ... وفي هذه النقطة فِهْرِسُ الشجرةِ الباسقة وخطةُ عملها. فكتاب كهذا ما يكون إلا من إبداع قلمِ صاحبِ قدرةٍ متصفٍ بالجمال والجلال والحكمة المطلقة. أي أن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلا مَنْ أسكَرته الضلالة[٢] العقلية والأهواء النفسية! فيا من يريد رؤية الحقيقة مجرّدة! أنعم النظر في (هذا)؛ لأن باب الخرافات ينفتح من هذا الموضع... ففي هذه الأرض القاحلة الجرداء يضيع على الإنسان أخذُ العبرة ... ويفوته البناء على أسس المتقدمين كما يمليه الترقي، ولا يتجرأ على التصرف في ميراث الأسلاف ولا الزيادة عليه[٣]، واعلم! أنه كما تصدِّقه هذه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقّه الدلائل الأنفسية؛ إذِ اجتماعُ أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته[٤].

إنها وقفات سريعة عَجْلى، تُبرز القدرة الفائقة للشيخ النورسي على (الممارسة الكلامية الجديدة) التي تقدم نور الإيمان في عالم اليوم في أبهى صورة، وتكسب الاحترام والتقدير للرؤية الإسلامية في (معركة الحضارة). ولكن، ما مفهوم الإيمان الذي يريد العلامة النورسي إنقاذه؟

المحور الثاني: في فقه البناء والتجديد الإيماني النوري

أ/ مفهوم الإيمان في الرؤية النورية

إن الرقي والتقدم الاجتماعيين مرهونان -عند العلامة النورسي رحمه الله- بالإيمان، وإن « لإيمان (في الرؤية النورية) نسبةٌ يُنسِبُ الإنسانَ إلى مالكه، وجهةُ النسبة إنما تنظر إلى الصّنعة، فيكون مدار النظر حينئذٍ إلى المصنوعية والصنعة. فبالإيمان تزيد قيمةُ الإنسان إلى أن تصير الجنةُ ثمنَه، وتكونَ الخلافةُ رتبتَه، ويطيق على حمل الأمانة.. وأما الكفر فهو قاطع النسبةِ، وقاطع الوصلة.. فإذا انقطعت النسبة استتر الصنعُ، وانتكست

(١) المثنوي العربي النوري - ص: ٤٠٦

(٢) الكلمة العاشرة - ص: ٦٠

(٣) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ٣٩

(٤) الكلمة التاسعة عشرة - ص: ٢٥٥

الصنعةُ واختفى التجلي، وظهرت المادةُ، وانقلبت المرآة وسقطت القيمة إلى درك يتمنّى الكافرُ العدمَ، أو ينقلب تراباً»[١]، لذلك فالإيمان - الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع سبحانه - يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة التوحيدية الكامنة في الإنسان، باعتبار التوحيد الحقيقي: هو الإيمان بيقين أقرب ما يكون إلى الشهود، بوحدانيته سبحانه، وبصدور كلّ شئ من يد قدرته، وبأنه لا شريكَ له في ألوهيته، ولا معينَ له في ربوبيته، ولا ندَّ له في مُلكه، إيماناً يَهب لصاحبه الاطمئنانَ الدائم وسكينةَ القلب[٢].

ويترادف مصطلح التوحيد لدى النورسي مع مصطلح الإيمان بمعناه الذهني التصوري (...) كما يرادفه بمعناه الوجداني الذوقي أيضا[٣] في كثير من الأحيان.

وفي حديثه عن (بناء الإيمان) يخاطب العلامة النورسي الوجدان كما يخاطب العقل. يحرك الأول من خلال الكتاب المقروء (القرآن)، ويقنع الثاني من خلال الكتاب المنظور (الكون). ويتجلى هذا في توظيفه لآيات القرآن الكريم في مخاطبته للمؤمنين ليزدادوا إيمانا، وحثه على العقل والمنطق والحكمة في تدبر هذا الكون سعيا منه لإقناع الماديين والطبيعيين لينخرطوا في كتيبة الإيمان، في محاولة حثيثة لإحيائه وتجديده، والتحريض على الثبات عليه، وجعله أساس التفكير، ومنبع القيم والأخلاق، ومُحددَ المسير الصحيح، ونقطة التساند، والانطلاقَ نحو المستقبل الحضاري المنشود... إنه صاحب مشروع (الإنقاذ الإيماني) العالمي بامتياز.

ب /"ثمرات" إيمانية من خلال الرؤية النورية

من خلال هذه التعاريف النورية للإيمان نستنتج ما يلي:

- ربطُ الأستاذ النورسي الإيمانَ بالانتساب[٤] إلى الله تعالى انتسابا كليا.

- الإيمان يرتفع بالإنسان إلى مقام الكائن المكلف، وتبعا لذلك يضمن لنفسه مقام

---

(١) المثنوي العربي، الرسالة ١٣ بديع الزمان النورسي ص:٤٤١.

(٢) الكلمة الثانية والعشرون - ص: ٣٢٦

(٣) فريد الأنصاري: مفاتح النور (نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي) ، مركز دراسات رسائل النور بإسطنبول ومعهد الدراسات المصطلحية بفاس، ٢٠٠٤ ، ص: ٦٤.

(٤) من هنا صار تحديد معنى الكفر لدى النورسي يتوقف على هذا الفهم للإيمان فجعل الكفر هو بمثابة قطع الصلة بالله تعالى وانحطاط إلى درك البهيمية واليأس والندم.

الشرف والرفعة. فيصبح ذا قيمة عالية تُخَوِّل له أهليةَ خلافة الله في أرضه وتَحَمُّلَ أمانته التي كلفه بها وبالتالي الفوز بالجنة.

- إن الإيمان بالله وباليوم الآخر، أثمن مفتاحين يحلاّن لروح البشر طَلْسَمَ الكون ولُغْزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء[١].

- إن منبع الشجاعة -ككل الحسنات الحقيقية- هو الإيمان والعبودية، وأن منبع الجبُن -ككل السيئات-هو الضلالة والسفاهة[٢].

- إن الإنسان لا يهتدي إلى الإيمان بالله إلا عن طريقه صلى الله عليه وسلم وبتبليغه وإرشاده وهديه[٣].

- إذا ما أصبح الإيمان حياةً للحياة، وشعّ فيها من نوره، استنارت الأزمنة الماضية واستضاءت الأزمنة المقبلة، حياة تمد روحَ المؤمن وقلبَه من زاوية الإيمان، بأذواق معنوية سامية وأنوار وجودية باقية[٤].

- إن الإيمان والشريعة والحياة ثلاث مسائل عظيمة في العالم الإسلامي والإنساني. وأعظم هذه الثلاثة هي الحقائق الإيمانية[٥].

- إن الإيمان هو صانع الخُلُق الحميد... فالإيمان يقيم دائماً في القلب والعقل حارساً معنوياً أمينا[٦]، ويحدث سعادة ونعمة، ولذة وراحة[٧].

جـ/ (الطريقة) النورية لإنقاذ إيمان البشرية:

لقد تعددت (طرق) الإصلاح العقدي والبناء الروحي في التجربة التربوية الإسلامية التاريخية ، والنورسي لم يرد تكرار تجربة (الطرق) الأخرى، فإن هذا الزمان ليس زمان الطريقة، فالبدع تحول دون ذلك، (ويكفي التفكير) في حقائق الإيمان وحدها. والزمان

---

(١) الكلمة السابعة - ص: ٢٦

(٢) الكلمة الثالثة - ص: ١٣

(٣) الشعاع الحادي عشر - ص: ٢٥١، بتصرف يسير

(٤) الملاحق - ملحق قسطموني، ص: ١٧٥، بتصرف يسير

(٥) الملاحق - ملحق قسطموني، ص: ١٦٥

(٦) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٥٢٢-٥٢٣، بتصرف

(٧) الكلمة الثانية - ص: ٩

أظهر أنه يلزم لكل أصحاب طريقة - بل الألزم لهم - أن يدخلوا دائرة رسائل النور التي هي أوسع الطرق وتضم خلاصة الطرق ضمن دائرة السنة النبوية الشريفة ... ولهذا فهم لا يتزعزعون أبدا فيمكنهم إذن أن يكونوا طلاب رسائل النور حقاً، بشرط ألا يدخلوا - حسب المستطاع - في البدع ولا يرتكبوا الآثام التي تحول دون التقوى وتجرحها[١].

وأصول (الطريقة النورية) يبرزها ماورد في ملحق بارلا: نعم، إن لي ولله الحمد طريقاً سوياً رفيعاً هو الإسلام، ولي منهل عظيم أنهل منه هو مشرب العجز والفقر إلى الله، وأقتدي بقائد رائد جليل هو سيد المرسلين، الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأسترشد بمرشد عظيم هو القرآن المبين، وأسلك مسلكاً قيّماً يبلغني مرتبة الولاية لله في دقيقة واحدة - كما هو لدى الجندي المرابط في الثغر- فلقد علّمني أستاذي، كما علّم كل ذي عقل: أن الزمان زمان إنقاذ الإيمان لا سلوك الطريقة الصوفية. فقال: أد حق الصلاة خمس أوقات في اليوم، واعمل بالأذكار عقبها، واتبع السنة الشريفة، واجتنب الكبائر السبع. فاستجبتُ بكل ما أملك من روح وقلب. قلت: نعم أيها الأستاذ!. قلته بتوفيق من الله سواءً لهذا الدرس أم للدروس التي تلقيتُها من رسائل النور، قلته لما أظهره الأستاذ من حقائق استنبطها من القرآن الكريم.. وصدّقتُها بكل جناني. فالذي لقنني هذا الدرس -درس الحقيقة -خاطبته بـ "الأستاذ". تلك الكلمة التي لم أخاطب بها أحدا في حياتي غيره[٢].

د/ حقيقة اللذة ونشوة الروح:

ما دام أهل الإيمان والطاعة يرون القبر الماثل أمامَهم باباً إلى رياض سعادة دائمة ونعيم مقيم، بما مُنحوا من القدر الالهي من وثيقة تُكسبهم كنوزاً لا تفنى بشهادة الإيمان، فإن كلاً منهم سيشعر بلذة عميقة حقيقية راسخة، ونشوة روحية لدى انتظاره كل لحظة مَن يناديه قائلاً: تعال خذ بطاقتك !بحيث أن تلك النشوة الروحية لو تجسمت لأصبحت بمثابة جنة معنوية خاصة بذلك المؤمن، بمثل ما تتحول البذرة وتتجسم شجرةً وارفة[٣].

---

(١) الملاحق - ملحق أميرداغ/٢، ص: ٣٤٤، بتصرف

(٢) الملاحق - ملحق بارلا، ص: ٢٢

(٣) الكلمة الثالثة عشرة - ص: ١٥٨

إذا كان لابد لثمرة الإيمان أن تكون أخلاقا تؤطر حركة الإنسان في هذه الحياة، وتهيمن على حقيقة خلافته في الأرض، فما هو فقه البناء والتجديد الأخلاقي النوري؟ ذلك ما سأعالجه في المحور التالي:

المحور الثالث: في فقه البناء والتجديد الأخلاقي النوري

لقد قدم سعيد النورسي رحمه الله منظومة أخلاقية قرآنية تتسم بالشمولية والنسقية والأصالة والترابط والانسجام، ثم إنها تقوم على مجموعة من المبادئ العلمية والقوانين الكلية، من أهمها الفطرة والإيمان، والتدرج، والنسبية، والواقعية، والتناسب. وإذا كان النورسي رجلا قرآنيا بحق، وكان منهجه بالتالي هو منهج القرآن، فلابد أن تكون نظريته الأخلاقية قرآنية كذلك[١]، فهي - في اصطلاح بديع الزمان النورسي- « نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني»[٢]. هذا إذن هو التصور الشمولي لمفهوم الأخلاق لدى النورسي. ووقفة عجلى عند هذا التعريف تبرز ما يلي:

* إن الأخلاق نظامُ القرآن ونسقُه الكلي: لأن رسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق. فكل تصرفات البشرية نفسية كانت أو اجتماعية أو وجودية، مع سائر الكائنات إنما هي أخلاق.

* ينظر النورسي إلى الأخلاق على أنها أصول لا فروع، وعلى أنها قانون، بمعنى أنها نظامٌ مطردٌ ونسقٌ كليٌ وليست أحوالا تقبل الحدوث كما تقبل التخلف، و أنها ضوابط لتكييف السلوك الإنساني تكييفا تربويا[٣]، فإذا قلنا: "النظافة من الإيمان" فمعنى هذا أنه لا يمكن أن نتصور مؤمنا ليس نظيفا، فهذا الخلق أصل لا يمكن الاستغناء عنه. وكون الأخلاق تطبع صورة الروح بماهيتها، معناه أنها تنقية لماهية الإنسان من شوائب الأنانية الوجودية، وذلك بتجلية صورة الروح الإنسانية وتصفيتها، حتى تبدو مرآتها على أجلى حقائقها من حيث كونُها أكملَ رمز للعبودية[٤].

---

(١) أبو بكر العزاوي: المنظومة الأخلاقية عند النورسي، المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي، العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، إسطانبول - تركيا - ٢٤-٢٠٠٢.٠٩. ص: ١٥٣. بتصرف.

(٢) فريد الأنصاري: الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان، دراسة في نظرية الأخلاق عند الأستاذ النورسي، ص: ٢٠٦.

(٣) الكونية الأخلاقية ، مرجع سابق، ص: ٢٠٦-٢٠٧. بتصرف.

(٤) نفسه. ص:٢١٤. بتصرف.

* تسلك الأخلاق بالروح الإنسانية مدارج المجاهدة، ذلك أن التخلق لا يحصل إلا بالمجاهدة والعزم على مواجهة عدوى الفساد الأخلاقي، وينخرط الإنسان بذلك في صراع مع الشهوات الحيوانية التي تثور في نفسه[١].

* تُكسِب الأخلاق الروحَ الإنسانية معناها الكوني، وذلك راجع إلى أن الإنسان مؤهل لمهة كونية كبرى هي الإمامة التعبدية. إذ جعله الله إماما للعابدين، ولسائر السائرين من الخليقة أجمعين.[٢] كما هو مشار إليه في آية الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

هذه هي خلاصة الفقه الأخلاقي النوري باختصار، فما هو موقع جدلية الإيمان والأخلاق في المشروع التربوي الحضاري النوري؟

المحور الرابع: جدلية البناء الإيماني والتجديد الأخلاقي، ومركزيتها في الإصلاح الحضاري

إن علاقة الإيمان بالأخلاق علاقة متلازمة وجدلية. فكلما كان الإيمان قويا كانت أخلاق المؤمن عالية، والعكس صحيح. يقول النورسي رحمه الله: «اعلم أن الإيمان إكسير يقلِبُ فحمَ المادة الفانية ألماساً مصنّعاً مرصّعاً باقياً بمعناه بنسبته إلى الصّانع الباقي.. والإنسان بالكفر يعكس فينتكس»[٣]. وتتجلى مظاهر هذه الجدلية الأزلية في بعدها الواقعي من خلال النموذج النبوي ومن خلال العمران البشري الاجتماعي الذي أرسى الإسلام قواعده. ونقف عند ذلك من خلال المطالب التالية:

أ/ الأخلاق المحمدية أخلاق قرآنية:

إن أعظم معجزة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد القرآن الكريم هو ذاتُه المباركة، أي ما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق السامية والخصال الفاضلة، وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً وأعظمُهم محلاً وأكملُهم محاسنً وفضلاً. حتى إن بطل الشجاعة الإمام علي رضي الله عنه يقول: "إنا كنا إذا حمي البأس

(١) نفسه. ص:٢١٨. بتصرف.

(٢) نفسه. ص: ٢٢٢. بتصرف.

(٣) المثنوي العربي النوري – ص: ٤٤١

-واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله[١]، فما دام يملك في ذاته وفي مهمته وفي دينه أسمى الأخلاق وأجملها، وأكمل السجايا وأثمنها، وأرفع الخصال وأفضلها، فلا ريب أنه مثال لكمال الموجودات، وممثلٌ لفضائل الأخلاق ومثالها المجسم، والقدوة الحسنة لها[٢].لأجل هذا فإن أشد الفلاسفة فساداً وأفسد أولئك المنافقين وجداناً يعترفون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان فذاً في العقل وآية في الأخلاق[٣]، كان عبدا في قمة الحرية وحرا في قمة العبودية، إذ أن جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الإيمان؛ ذلك لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبداً للعبيد[٤]، هذا الإيمان وهذه الأخلاق هما أس النهوض الحضاري الإسلامي ومركز الدورات الحضارية التي تحمل في ثناياها رحيق الحرية المسئولة والعبدية الحقة، وتحمل وقود الاستمرارية المتطلعة نحو آفاق البناء الإسلامي المتحد على مستوى المرجعية، والناهل من العقل والمسدد بالوحي، وإن أساس هذا الاتحاد الإسلامي[٥] يمتد من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال... ومركزه: الحَرمان الشريفان... وجهة وحدته: التوحيد الالهي... عهده وقَسَمه: الإيمان... نظامه الداخلي: السنة النبوية الشريفة... قوانينه: الأوامر والنواهي الشرعية... مقر اجتماعاته: جميع المدارس والمساجد والزوايا... ناشرُ أفكار تلك الجماعة نشراً خالداً إلى الأبد: جميع الكتب الإسلامية وفي المقدمة القرآن الكريم وتفاسيره (ورسائل النور إحدى تلك التفاسير في زماننا هذا) وجميع الصحف الدينية والجرائد النزيهة التي تهدف إلى إعلاء كلمة الله... ومنتسبوه: جميع المؤمنين... رئيسه: فخر العالمين صلى الله عليه وسلم[٦]، الذي بترسيخه لمفهوم جديد وحقيقي للحرية يكون قد أرسى أهم قاعدة من قواعد الإصلاح الحضاري، إذ المؤمن حرّ في ذاته. فالذي هو عبد لله رب

---

(١) قال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس، ويروى: اشتد البأس، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا. رواه أحمد في مسنده (١/١٥٦)، والبغوي (١٣/٢٥٧).

(٢) المكتوب التاسع عشر - ص: ٢٥٢

(٣) المكتوب السادس والعشرون - ص:٤٠٧

(٤) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٥٢٧

(٥) أو الجمعية المحمدية كما في صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٥٣١

(٦) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٥٣٤

العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس، بمعنى: أنه كلما رسخ الإيمان قويت الحرية[١]. فلقد علم صلى الله عليه وسلم أمته، عبر أخلاقه العالية المبثوثة في سيرته العطرة، أن الحياة إن كانت خالية من الإيمان، أو فَقَد الإيمان تأثيره فيها لكثرة المعاصي، فإنها مع متاعها ولذتها الظاهرية القصيرة جداً تذيق الآلام والأحزان والهموم أضعاف أضعاف تلك المتع والملذات[٢]، وعلم صلى الله عليه وسلم المؤمنين به أن ساحة الحياة تمور موراً بالحرب يعيشها الإنسان غير المطمئن بالإيمان في صراع مع النفس الأمارة واللوامة، حرب جيشها مقسم إلى أفواج من الأجيال البشرية... (جيش) فيه جنديان اثنان؛ أما أحدهما فهو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب الكبائر، وهو ذلك المسلم التقي الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب .. وأما الآخر: فهو الفاسق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد اتهام الرزاق الحقيقي ... وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين[٣].

ب/ أخلاق الإسلام... أخلاق حضارية استخلافية

الأخلاق النبوية (ومرجعيتها الأخلاق القرآنية)، هي نبراس التجربة الإنسانية المؤمنة في هذه الحياة، ومن أجل استئناف حضاري إسلامي منشود لابد من إعادة ربط حياتنا المستقبلية بجهازنا المفاهيمي الأخلاقي الأصيل الذي يستمد قوته واستمراره من الأخلاق النبوية، وإن أيسر الطرق أنفعها وأقصرها وأسلمها لذلك هي في الصراط المستقيم وفي الاستقامة[٤]، إنه أقصر الطرق إلى بناء الحضارة الإنسانية على أرضية إيمانية توحيدية، الطريق الذي يرشد إليه دعاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، الوارد في سورة الفاتحة، الذي –باتباعه– سيكون الإنسان الباني للحضارة الموحِّدة.

ونقف في عجالة عند بعض الأخلاق الإسلامية البانية للحضارة الموحِّدة التي ركز عليها الشيخ النورسي في (نظريته الأخلاقية) من خلال النقط التالية:

---

(١) نفسه ص: ٥٣٥

(٢) الكلمة الثالثة عشرة – ص: ١٦٠

(٣) الكلمة الخامسة – ص: ١٩

(٤) الشعاع الخامس عشر – ص: ٦٤٩، بتصرف

١- خلق العدل:

وهو مفهوم مركزي في التصور الحضاري الإسلامي، إذ به قامت السماوات والأرض ومن فيهن، وبالظلم انتكست الدورات الحضارية على مر التاريخ، فقد انكشفت أمام الإنسان درجات لاحدّ لها من الأخلاق السيئة، حتى أوصلته إلى دركات النماردة والفراعنة، فيكون مصداقَ صفة ظلوماً بحق (بالصيغة المبالغة)، كما انفتحت أمامه درجات الرقي التي لا منتهى لها في الخصال الحميدة حتى بلغ مرتبة الأنبياء والصديقين[١] بُناة الحضارة الموحِّدة، لا المدنية الشيئية الغالبة فقط.

ويعقب الشيخ الجليل على هذا بقوله: نعم! إنني أفضل البداوة على هذه المدنية الممزوجة بالاستبداد والسفاهة والذل. إن هذه المدنية تجعل الأشخاص فقراء وسفهاء وسيئي الأخلاق. بينما تسعى المدنية الحقيقية لترقية النوع الإنساني وتدفعه إلى التكامل، وتخرج ماهيته النوعية من القوة إلى الفعل، لذا فإن طلب المدنية والسعي لها انطلاقاً من هذه الزاوية يعدّ سعياً نحو الإنسانية[٢] ونحو البناء الأخلاقي العادل.

٢- خلق الصدق:

لقد تغيرت أحوال الأمة الإسلامية بمرور الزمن، وتقلصت المسافة بين الكذب والصدق رويداً رويداً كلما اقتربنا إلى عصورنا الحاضرة، حتى أصبحا مترادفين في العصر الحاضر، فصارا يعرضان معاً في معرض واحد، ويصدران معاً من مصدر واحد، ففسدت الأخلاق الاجتماعية واختلت موازينها، وزادت الدعايات السياسية إخفاء قبح الكذب المرعب وستر جمال الصدق الباهر[٣] رغم أن الكذب أخطر قارض من القوارض التي تتآكل شبكة الحياة الاجتماعية بسببها، ورغم أنه صلى الله عليه وسلم يحذر منه أكثر من غيره[٤]، فالكذب أساس الكفر، بل الكفر كذب ورأس الكذب، وهو الأُولى من علامات النفاق. وما الكذب إلا افتراء على القدرة الالهية، وضدٌّ للحكمة الربانية... وهو الذي خرّب الأخلاق العالية... وبه انتشر السمّ في الإسلام... وبه اختلت

---

(١) المكتوب السادس والعشرون - ص:٤٢٧

(٢) صيقل الإسلام/المحكمة العسكرية العرفية - ص: ٤٦٢

(٣) الكلمة السابعة والعشرون - ص: ٥٧٥

(٤) قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا" (موطأ الإمام مالك: ٩٩٠/٢)

أحوال نوع البشر... وهو الذي قيّد العالم الإنساني عن كمالاته، وأوقفه عن ترقياته... وبه وقع أمثال مسيلمة الكذاب في أسفل سافلي الخسة... وهو الحِمْل الثقيل على ظهر الإنسان فيعوقه عن مقصوده... وهو الأب للرياء والأم للتصنع... فلهذه الأسباب اُختص بالتلعين والتهديد والنعي النازل من فوق العرش [١].

وهل يمكن لأي بناء حضاري أن يكتمل وشبكةُ علاقاته الاجتماعية مقطعةٌ، والوظيفةُ الاجتماعية والحضارية للدين وقيمه معطلةٌ ومغيبةٌ؟

إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بـ" الجدية"، وإن إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بـ"الصدق". ومتى ما انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح، فمن القواعد وجود الميل والجذب في الأمور المتناسبة، ووجودُ الدفع والتنافر في الأمور المتضادة، فكما أن هذه القاعدة جارية في الماديات، جاريةٌ أيضا في الأخلاق والمعنويات (وبناء الحضارات)... فالأخلاق السامية لا تسمح أصلا بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تتنزه وتتبرأ وترتفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها... فالصدق وإصابة الحق يضيئان كالشعلة المنورة ويعلنان عنها[٢]، لذلك فإن تدوير أفكار العموم وإرشادها بحيل الترهيب والترغيب والخوف والتكليف إنما يكون تأثيرها جزئيا سطحياً مؤقتا يسدّ طريق المحاكمة العقلية. أما من نفذ في أعماق القلوب بإرشاده، وهيج دقائق الحسيات، وكشف أكمام الاستعدادات، وأيقظ الأخلاق، وأظهر الخصائل المستورة، وجعل جوهر إنسانيتهم فواراً، وأبرز قيمة ناطقيتهم؛ فإنما هو مقتبس من شعاع الحقيقة ومن الخوارق للعادة، فبينما ترى شخصا في قساوة قلبه يقبر بنته حيةً ولا يتألم ولا يتأثر إذ تراه بعد يوم - وقد أسلم - يترحّم على نحو النمل، ويتألم بألم حيوان .فبالله عليك أينطبق هذا الانقلاب الحسي على قانون؟[٣]، إنه نموذج الإنسان المتحضر حقا ... الإنسان المحتاج بالضرورة إلى نبي يمسك بميزان العدالة الالهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع[٤] وينير دروبه المظلمة حتى تتكشف له أنوار التحضر التي تعصمه من التحدر بسبب خلق الصدق الداخلي مع الذات والصدق الخارجي مع محيطه المتنوع المخلوقات والكائنات.

---

(١) إشارات الإعجاز - ص: ٩٧

(٢) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ١٤٣، بتصرف

(٣) إشارات الإعجاز - ص: ١٦٩

(٤) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ١٣٩

٣- خلق المحبة:

لأن الإيمان يؤسس الأخوة بين كل شئ، لايشتد الحرصُ والعداوةُ والحقد والوحشة في روح المؤمن؛ إذ بالدقة يرى أعدى عدوه نوع أخ له... ولأن الكفر يؤسس أجنبية وافتراقاً - لا إلى اتصال - بين كل الأشياء، يشتد في الكافر الحرصُ والعداوةُ والتزام النفس والاعتمادُ عليها... ولأن الكافر يرى في الدنيا مكافأة حسناتِه في الجملة، والمؤمن يرى جزاءَ بعضِ سيئاته في الدنيا؛ صارت (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[١]. فأنت ترى أن المحبة-مطلق المحبة-ثمرة لذيذة وشهية من ثمرات الإيمان، وخلق رفيع يمتن أواصر الأخوة التي أسست البنيان المرصوص في عهد الجيل الفريد[٢] الأول.

وكما تؤسس المحبة المؤمنة البناء الحضاري والاجتماعي العام، فإنها ضرورية للبناء الأسري الخاص، فمحبة الزوجة، وهي رفيقة حياتك، عليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل أوْثِقْها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها .وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلا تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها، بزوال الجمال الظاهري[٣]، ومن مقتضيات محبة المؤمنات أن القرآن يأمرهن أن يحتجبن بحجاب الحياء، رحمةً بهن وصيانة لحرمتهن وكرامتهن، ولكي لا تهان تلك المعادن الثمينة، معادن الشفقة والرأفة، وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة تحت أقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكنّ آلة لهوسات الرذيلة ومتعة تافهة لا قيمة لها... علماً أن الحياة العائلية إنما تدوم بالمحبة والاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة، بينما التكشف والتبرج يزيلان تلك المحبة الخالصة والاحترام الجاد ويسممان الحياة العائلية[٤]، وبذلك تفسد تلك النواة الأولى واللبنة الأساس في البناء الحضاري الإسلامي الذي

---

(١) المثنوي العربي النوري - ص: ١٥٨، والحديث أخرجه مسلم برقم ٢٩٥٦عن أبي هريرة.

(٢) انظر في ذلك: سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، فصل (جيل قرآني فريد).

(٣) الكلمة الثانية والثلاثون - ص: ٧٦٥

(٤) الكلمة الخامسة والعشرون - ص: ٤٧٦

يعكس قيم العائلة المؤمنة الكبيرة المبنية على الإيمان الذي إن لم يكن مسيطراً على أفراد هذه العائلة الكبيرة فسيستولى عليهم الحقد والكراهية والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع، بدلاً من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية ورضا الله والثواب الأخروي. وكانت-بالتالي-معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمةً ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية، وحينئذ تتسمم الحياة، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشبابُ بالسُكر والعربدة، والأقوياءُ بالظلم والتجاوز... والشيوخُ بالبكاء والأنين[1].

إن خلق المحبة يقوي النسيج الاجتماعي ويكسبه منعة خاصة ضد كل القوارض التي يمكن أن تؤثر فيه، على أن تكون هذه المحبة مشروطة بالمحبة الإلهية المطلقة الخالصة، فالمحبة بنت الإيمان الشرعية.

٤- خلق الاقتصاد:

الاقتصاد هو القصد والتوسط والاعتدال، وهو مطلب إسلامي أصيل في جميع نواحي الحياة، وخاصة الحياة التعبدية والأخلاقية، إذ إن هناك بونا شاسعا وفرقا هائلا بين الاقتصاد والخسة، فكما أن التواضع الذي هو من الأخلاق المحمودة يخالف معنى التذلل الذي هو من الأخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة، وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنى التكبّر الذي هو من الأخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة، فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الأخلاق النبوية السامية، بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص، بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، إلا ذلك التشابه الظاهري[2].

إنها مختارات من الأخلاق الإسلامية التي ركز عليها العلامة النورسي ضمن مشروعه الإصلاحي التربوي، وقفت عندها قصد الإشارة والتمثيل فقط، وإلا فإنها في حاجة إلى مزيد رصد وتحليل لا يسع المقام للتفصيل فيه.

---

(١) الشعاع الحادي عشر - ص: ٢٨٣، بتصرف

(٢) اللمعة التاسعة عشرة - ص: ٢١٩

جـ/ مبادئ علمية للأخلاق النورية:

بعد حديثنا عن تعريف الأخلاق عند النورسي، وبعدما مثلنا لبعضها، لابد من توضيح بعض المبادئ العلمية، والقوانين الكلية، التي بنى عليها النورسي منظومته الأخلاقية، والتي يمكن سردها على الشكل التالي:

١ – مبدأ الفطرة: ذلك أن الإنسان مفطور على التدين، والخير، والصدق، والتعارف، والانسجام مع بني جلدته.

٢ – مبدأ التدين: فإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرة، وتكميلها وتهذيبها.

٣ – مبدأ الشمولية: إن المنظومة الأخلاقية التي اشتملت عليها رسائل النور، تتسم بالشمولية، والعموم، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بل شملت علاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته[١].

٤ – مبدأ العلمية: تناول النورسي للأخلاق تناول قرآني ديني، وتناول علمي في وقت واحد، والدين والعلم لا يتعارضان في مقاربة النورسي للقضايا الأخلاقية وفي بنائه لمنظومته الأخلاقية.

٥ – مبدأ النسبية: يتجلى توظيفه لهذا المبدأ في أماكن عديدة، ومتفرقة من رسائل النور، حيث ينظر إلى الأخلاق بكونها تزيد وتنقص، وتتغير باختلاف الأشخاص والأحوال، مثلها في ذلك مثل الإيمان.

٦ – مبدأ الواقعية: يوظف النورسي هذا المبدأ في معالجته لعدد كبير من القضايا الفكرية والأخلاقية، ويمكن أن ندعوه أيضا بمبدأ السياق، ومفاده أنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف والسياقات، وتنوعها، فلكل سياق حكم، ولكل مقام مقال.

٧ – مبدأ الانتظام والانسجام: تتسم رسائل النور بالشمول، والنسقية، والانسجام، وقد اعتمد النورسي هذا المبدأ في دراسته للأخلاق[١]، كما ظهر من خلال فقرات سابقة.

---

(١) المنظومة الأخلاقية، مرجع سابق. ص: ١٥٥- ١٥٧.بتصرف.

ثم أما بعد،

فلقد استطاع النورسي أن يؤسس فقها إيمانيا وأخلاقيا عميقا، فقها ينهل من المرجعية القرآنية وتطبيقاتها النبوية، فقه موحِّد، يبني الحضارة بوقود الإيمان، ويضمن استمراريتها برصيد استمرار الأخلاق الاستخلافية.

خاتمة: في خلق الدعاء

وأخيرا: أفليس للإنسان أن يدعو بـ(لسانه) ويناضل بـ(ألفاظه)؟

فإن الإنسان معرضٌ لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب ومهاجمة الأعداء لما يحمل من عجزٍ مطلقٍ، وله مطالبُ كثيرةٌ وحاجاتٌ عديدة؛ لذا تكون وظيفتُه الفطريةُ الأساس" الدعاءَ " بعد الإيمان، وهو أساسُ العبادة ومخّها[٢]. فكما يلجأ الطفلُ العاجز عن تحقيق مرامه أو تنفيذ رغبته بما لا تصل إليه يدُه، إلى البكاء والعويل أو يطلب مأمولَه، أي يدعو بلسان عجزه إما قولاً أو فعلاً فيوفَّق إلى مقصوده ذاك، كذلك الإنسان الذي هو ألطفُ أنواع الأحياء وأعجزُها وأفقرُها وهو بمنزلة صبيٍّ ضعيفٍ لطيفٍ، فلابدّ له من أن يأوي إلى كنفِ الرحمن الرحيم والانطراح بين يديه إماً باكياً معبراً عن ضعفه وعجزه، أو داعياً بفقره واحتياجه، حتى تُلبّى حاجتُه وتُنفَّذ رغبتُهُ، وعندئذٍ يكون قد أدّى شكرَ تلك الإغاثات والتلبيات والتسخيرات[٣].

فاللهم صلِّ على جامع مكارم الأخلاق ومُظهر سر ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، الذي قال: (من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد)[٤].

ونوِّر قلوبَنا بنور الإيمان والقرآن وأغنِنا بالافتقار إليك ولا تُفقِرنا بالاستغناء عنك، تبرأنا إليك مِن حولنا وقوتنا والتجأنا إلى حولك وقوتك، فاجعلنا من المتوكلين عليك

---

(١) نفسه.ص: ١٦١- ١٦٢. بتصرف.

(٢) عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء مخ العباد. قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث بن لهيعة. جامع الترمذي حديث رقم: ٣٣٧١ (ضعفه الألباني)

(٣) الكلمة الثالثة والعشرون - ص: ٣٥٥

(٤) اللمعة الحادية عشرة - ص: ٩٦، والحديث ذكره الشيخ الألباني في كتابه "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، المجلد ١، رقم (٣٢٦).

ولا تكِلْنا إلى أنفسنا واحفظنا بحفظك وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات[1] واجعلنا من الأحاسن أخلاقا، آمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر

القرآن الكريم برواية ورش.

أ- **الحديثية**: موطأ الإمام مالك، أحمد في مسنده ، جامع الترمذي، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ الألباني

ب- **كليات رسائل النور**: بديع الزمان النورسي، ترجمة : الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: إشارات الإعجاز، الشعاعات، صيقل الإسلام، الكلمات، اللمعات، المثنوي العربي النوري، المكتوبات، الملاحق

المراجع

- **نظرة سعيد النورسي إلى عصر النهضة وعلم الكلام**، عادل محمود بدر.
- **الكلام الجديد (حديث في المفهوم ...)**، محمد البنعيادي، ط١/٢٠١٠، فاس، المغرب.
- **مفاتح النور**، نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، فريد الأنصاري، مركز دراسات رسائل النور بإسطنبول ومعهد الدراسات المصطلحية بفاس، ٢٠٠٤.
- **المنظومة الأخلاقية عند النورسي**، أبو بكر العزاوي. المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي، العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، إسطانبول ـ تركيا ـ ٢٤-٢٠٠٢.٠٩.
- **الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان**، دراسة في نظرية الأخلاق عند الأستاذ النورسي، فريد الأنصاري.
- **معالم في الطريق**، سيد قطب، دار الشروق.

(١) الكلمة السابعة - ص: ٣٠